التّراتب الاجتماعيّ في الغرب الإسلاميّ

- آسيا كرامي.
- عبد الفتاح عمي سعيد.

المقدمة:

موضوع التراتب الاجتماعي (أو طبقات المجتمع) من أولى المواضيع لفهم مجتمع ما، ولفهم مجتمع الغرب الإسلامي اخترنا هذا الموضوع نظرا لأهميته، رغم أن طبقات مجتمع الغرب الإسلامي تختلف حسب الظروف وحسب الدول، لكن يمكن حصرها في عدّة طبقات متشابهة، فما هي هذه الطبقات، وكيف كان ترتيبها؟

مدخل:

التعريف الاصطلاحي للمجتمع:

عرّفه الدكتور محمد بن علي الجزولي أنه " عدد كبير من الأفراد المستقرّين الذين تجمعهم روابط اجتماعية ومصالح مشتركة ترافقها أنظمة تهدف إلى ضبط سلوكهم ويكونون تحت رعاية السلطة"

تعريف الغرب الإسلامي:

هذا المصطلح مرتبط بإطار مكاني وآخر زماني، فالإطار المكاني للغرب الإسلامي هو المنطقة الممتدة من إقليم برقة شرقا إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غربا، ومن بحر الروم (البحر المتوسط) شمالا إلى مشارف بلاد السودان جنوبا، بالإضافة إلى جزيرة الأندلس وصقلية وميورقة وغيرها من الجزر التي فتحها المسلمون والمُحاطة ببحر الروم.

أما إطاره الزماني: فبدايته هي مرحلة الفتوحات الإسلامية (21-96هـ/ 642-715م) ونهايته هي سلسلة أحداث تمثلت في سقوط الأندلس وبداية الوجود العثماني في بلاد المغرب.

الطّبقة الحاكمة (الحكّام وقادة الجيش):

يُجمع المؤرخون أن الحكّام هم قمة الهرم سياسيّا واجتماعيّا رغم اختلاف معاملة هؤلاء الحكّام للرعية، فقد كان فيهم من كان متواضعًا ومعتبرًا نفسه واحدا من الرعية، وكان فيهم من مثّل

أبّهة المُلك وغاية الترف، وقد جمعت بعض الدول هذين المثالين معا، منها دولة المرابطين، فقد كان يوسف بن تاشفين –حسب وصف ابن أبي زرع- متقشفا فيما فتحه الله عليه، لباسه الصوف ولم يلبس غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها على عادة قومه، أما عهد الترف وغاية المُلك فقد مثّله ابنه علي بن يوسف، فلم يستطع المجتمع آنذاك مقاومة الحياة الأندلسية ومظاهرها طويلا.

بعد طبقة الحكّام توجد طبقة قادة الجيش، إذ كان للجيش دور كبير في حفظ استقرار الدول في تلك الفترة واستمرارها، فانعكست مكانتهم السياسية على الحياة الاجتماعية.

أصحاب الوظائف الحكومية:

1) الوزراء والكتّاب:

تداخلت وظيفة الوزير بالكاتب، وهذه الوظيفة تؤدي إلى مخالطة الملوك، لذلك كانت رتبة الكاتب والوزير قريبة جدا من رتبة الملك أو الحاكم، قال ابن خلدون: "يُختار صاحب هذه الخطّة من أرفع طبقات الناس، ومن ذوي المروءة والحشمة وزيادة في العلم".

وما يعكس مكانتهم أيضا هو حياة الترف التي عاشها الكتّاب والوزراء، وإحاطتهم بالخدم والعبيد.

2) الولاة:

لم تكن رتبة الولاة بعيدة عن رتب من هم أعلى منهم، بحكم ما كان لهم من السلطة والجاه والأموال.

3) مشرفو المدن:

حظي مشرفو المدن في العصر الوسيط بمكانة مرموقة، لكن رتبهم تختلف بمدى أهمية المدينة التي يشرفون عليها، فمشرفو المدن الكبرى والحواضر ليسو كمشرفي المدن الصغرى.

الفقهاء:

دول المغرب الوسيط دول ثيوقراطية تولي أهمية كبرى للدين، لذلك كانت للفقهاء رتبة ضمن الرتب العالية، فكانت لهم مهام عديدة بعضها يتصل بعامة الناس فيكونون مقدّرين عندهم، وبعضها تصلهم بالخاصة فيحظون عندهم بالجاه، وكان بعض الحكّام لا يُصدرون قرارا إلا بالعودة إليهم.

العائلات الوجيهة:

يتداخل أصحاب هذه الرتبة مع أصحاب الرتب الأخرى، فقد تكون العائلة الواحدة تحوي حاكما وأخاه، أو كاتبا وابنه، أو مفتيا وجدّه، أو غيرها.

وقد تجمع العائلة الواحدة بين العلم الدنيوي والعلم الشرعي والمال معًا.

الطبقة الوسطى:

أصحاب الوظائف الحكوميّة المتوسطة:

والموظفون المتوسطون هم أصحاب الأحكام (القضاة) وأصحاب المدن والمحتسبون.

التجار وأصحاب المهن:

والتجار مراتب؛ أعلاها مرتبةُ تجار القوافل، خاصة التي تشتغل بين بلاد المغرب وبلاد السودان، ثم تأتي بعدها مرتبة تجار الجملة، وهم المتاجرون بين المدن المتقاربة، ثم مرتبة أصحاب المهن والتجار الصغار.

الصيارفة والسماسرة:

أدى اختلاف قيمة العملات بين دول المغرب والأندلس إلى جني الصيارفة لأرباح كبيرة، وكذلك كان الحال بالنسبة للسماسرة، فكثرة العمران وكثرة التبادل في الكثير من الفترات أدّت بهم إلى الثراء.

الطبقة العامة:

الصناع والفلاحون:

كانت للصناع والفلاحين قيمة في مجتمع الغرب الإسلامي، نظرا لقيمة أعمالهم وأهميتها، ومن الذين أشاروا إلى هذه الأهمية المؤرخ ابن خلدون الذي ربط تطور العمران بتطور الصنائع، وكذلك الأمر بالنسبة للفلاحة وما لها من أثر كبير على الاقتصاد.

صغار التجار والباعة المتجولون:

لم تكن لصغار التجار والباعة المتجولين قيمة كبيرة في مجتمع الغرب الإسلامي، فكل الرتب الاجتماعية كانت تتأثر إما بالمكانة السياسية أو الاقتصادية، وأحيانا الدينية، وهذه الفئة لم تكن لها مكانة بالمقاييس الثلاثة.

المهمشون:

تضم هذه الرتبة العديد من الأصناف، وهي أدنى رتبة في طبقة العامّة، والمهمشون هم عالة المجتمع، كالمشردين والمتسولين ومن ابتلاهم الله تعالى فلم يكن لهم دور إيجابيّ بارز في مجتمعهم، وكانت هذه الفئات تعاني، وتلقى في بعض الأحيان إحسانا من أصحاب المراتب العالية.

طبقة العبيد والأسرى:

تتداخل فئتا هذه الطبقة معا، حيث طالما يكون مصير الأسير عبدًا، ومعاملة الأسير تشبه إلى حد بعيد معاملة العبد، ولم تفدنا المصادر بالكثير عن العبيد، نظرًا لمكانتهم المستصغرة في عيون المجتمع رغم كثرة عددهم خاصة في فترات البذخ أو الحروب.

الخاتمة:

ختامًا نرى أن مجتمع الغرب الإسلامي كان متراتبا وفق تراتب اجتماعي انعكس عن التراتب السياسي والاقتصادي والديني، حيث أن مكانة الشخص السياسية أو الاقتصادية أو الدينية تنعكس على مكانته الاجتماعية بالسلب والإيجاب.

وأن هذه الطبقات لم تكن متماثلة في جميع الأزمنة، لكن أمكننا جمعها في أربع طبقات كبرى، في كل طبقة مراتب.